صفحة تصدر بالتعاون مع الجمعية النفسية العراقية
iraqipa@hotmail.com

في حوار فكري عن الشخصية الكردية بين الهوية التأريخية والسمات المرحلية

المؤرخ والمفكر الكردي الدكتور كمال مظهر أحمد:

صورة الكردي ظلت ايجابية مثالية في العقل الباطن لعرب العراق

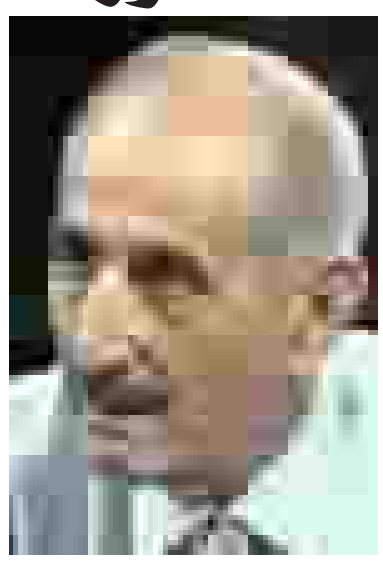

أجرى الحوار
فارس كمال عمر نظمي

□ على أديم الشعبية اختلطت دماء العرب والكرد في نيسان ١٩١٥ أثناء تصديهم للجيوش البريطانية الغازية

□ تثبت تجارب التأريخ أن الفيدرالية تبعد أصلا فكرة الانفصال شرط أن تكون هدفا ثابتا لا مناورة تستهدف الاحتواء

ان تحرر أي شعب من قيود الاستعباد والتخلف والوصاية، هو عملية تاريخية لها دينامياتها السياسية والسيكولوجية على حد سواء. فشعور الفرد بانتمائه القومي يمكن أن يغدو واحدا من أهم أوجه هويته النفسية، بل أن شعوبا كثيرة اختزلت هويتها الحضارية والتاريخية في مرحلة من مراحل صيرورتها وانعتاقها، الى عنوانها القومي ذي الجذر العرقي، وهذا ما يمكن أن نصف به حال الشعب الكردي اليوم، لاسيما في العراق.ولكن اللافت للنظر أن الإنسان الكردي، في الوقت الذي يقطر الدم من ذاكرته السياسية، إلا أن شخصيته حافظت على مجموعة من الخصائص النفسية ذات الطابع الإنساني - الأخلاقي المتميز.

فتسمية (الكرد) اشتقت لغويا من وفرة الشجاعة وشدة الحماسة والغيرة، طبقاً لـ((الموسوعة التاريخية الكردية)) لمؤلفها (شرف خان البدليسي).ويتفق العديد من المؤرخين والمستشرقين على تمجيد الشخصية الكردية، اذ يكتب العلامة الهولندي (ماليبارد) عن صمود الكرد وثباتهم: ((الحقيقة لم نر مدينة أو قصراً أو جبلاً استطاع أن يصمد خمسين قرناً من الزمن مثلما صمدت أربيل)).ويشخص الكاتب الروسي (باسيل نكتين) عادات الكرد وأخلاقهم بقوله: ((يمتاز الكردي باستقامته التي لا تتزعزع، وبحفاظه على العهد، وعطفه النبيل على أقاربه، وسلوكه الانساني.فطبائع الكرد لم تتغير منذ ألف عام قبل المسيح ولحد الآن ...انهم شعب قوي وموهوب)).ومع ذلك نجد بين الكتاب الكرد ذوي النظرة النقدية غير المتساهلة تجاه شعبهم، من يحاول تقصي بعض العوامل الجغرافية والاجتماعية التي راكمت رواسب سلبية في الشخصية الكردية، اذ يكتب (خالص مسور) في تحليله لفضاءات العقل الكردي: ((البيئة الجبلية، وان كانت قد حافظت على الحالة الكردية كشعب، ومنعته من الذوبان والانحلال ضمن واقع وخصوصيات القوميات الأخرى، وهذا هو الجانب الايجابي في الحالة، الا انها ومن جانب آخر أدت وبالتوازي مع ضغط هذه الأقوام الى حجب هذا الشعب عن اشعاعات الحضارات الخارجية...وأسهمت في اكساب العقل الكردي المزيد من التقوقع ...مما جعله مغترباً عن محيطه)).

ولأجل مناقشة هذه الأفكار، وتحديد الكيفية التي مارست فيها التطورات التأريخية (سلباً أو ايجاباً) فعلها التكويني الموضوعي في السيكولوجيا الكردية، ارتأيت أن أتوجه الى أحد أعمدة الثقافة العلمية التنويرية في العراق، المؤرخ والمفكر الكردي الأستاذ الدكتور (كمال مظهر أحمد).ولد الدكتور كمال في السليمانية في العام ١٩٣٧.وهو أول دارس من الشرق الأوسط نال شهادة دكتوراه العلوم (ناووك) السوفييتية في العام ١٩٦٩.له عشرات المؤلفات في تأريخ العراق والكرد، نشرت باللغات العربية والكردية والروسية، من بينها: ((كردستان في سنوات الحرب العالمية الأولى))، و((الطبقة العاملة العراقية:التكون وبدايات التحرك))، و((صفحات من تأريخ العراق المعاصر))، وآخرها ((كركوك وتوابعها: حكم التأريخ والضمير) الصادر في هذا العام.ولتلخيص المسيرة الفكرية لهذا المفكر الملتزم بحرفيات المنهج الأكاديمي ذي النزعة التقدمية الانسانية الصلبة، أقتبسُ من القاضي والباحث (زهير كاظم عبود) هذه الكلمات: ((كمال مظهر أحمد ...استطاع أن يؤسس مدرسة تأريخية تضم كل الأصوات الداعية لاعتماد الحقيقة الموضوعية في الكتابة التأريخية، اعتماد المنطق والضمير في التحليل التأريخي...اتسمت كتاباته وتحليلاته بالانصاف وعدم الانسياق وراء رغبة السلطان ولا فتاوي السلطان، ولم تهتز له شعرة في اصراره على أن يقول الحقيقة ويعلّمها ويصر عليها ...)) :

★هل يمكن القول ان هناك شخصية كردية ذات سمات نفسية تاريخية محددة يشترك فيها أغلب الكرد سواء كانوا في العراق او إيران أو تركيا أو سوريا أو الجمهوريات السوفييتية السابقة؟أم ان هناك شخصيات كردية متنوعة تبعاً لهذا التنوع الجغرافي الذي وجد الأكراد أنفسهم فيه؟

- لا أعتقد بوجود شعب واحد في العالم لا يحمل أبناؤه سمات نفسية مشتركة بغض النظر عن افرازات جميع الحواجز، طبيعية كانت أم مصطنعة.ينطبق هذا القول حتى على شعوب الولايات المتحدة الأمريكية التي انقطعت جذورها عن الوطن الأم على مدى مئات السنين، فأن طبع ملايين الألمان هناك أقرب الى طبع بني جلدتهم في وطنهم الأصلي البعيد، بكثير من طبع مواطنيهم القريبين منهم من انجليز وروس وبولونيين ويابانيين وغيرهم من أبناء عشرات الشعوب التي هاجرت الى أمريكا المعزولة عن قارتي أوربا وآسيا.شخصياً احتككت بصورة مباشرة بأذربيجانيي وأرمن الاتحاد السوفييتي وأخوانهم في ايران والعراق، ولم أكن أتوقع بأن الفكر الاشتراكي لم يهز، رغم قوة تأثيره، القيم النفسية المشتركة بين الطرفين، مع العلم أن أبناء الشعبين بدأوا يعيشون حالتين مختلفتين بصورة جذرية على مدى نحو قرن من الزمن منذ عهد القياصرة، وبلغ الانعزال بينهما في ظل ما عرف بالستار الحديدي في عهد ستالين ذروته.

حال الكرد حال هؤلاء وغيرهم، بل ربما أنهم عاشوا وضعاً أفضل الى حد ما، خصوصاً اذا أخذنا بنظر الاعتبار حقيقة مهمة في هذا المضمار، خلاصتها أن حدوداً حقيقية فاصلة بين أجزاء الشعب الكردي المختلفة لم تكن موجودة على أرض الواقع منذ أن ظهر الكرد في وطنهم كردستان قبل آلاف السنين، وظل هذا الواقع يحتفظ بقوته حتى بعد ظهور الدولتين المتصارعتين العثمانية والصفوية، ولم يفض صراعهما المستمر على مدى قرون طوال الى ايجاد حل لمشكلة الحدود بين تركيا وايران الا بعد أن وضعت الحرب العالمية الأولى أوزارها، ولكن حتى ذلك الحل لم يعدو عن كونه حلاً قانونياً، لذا لم يكن بوسعه أن يحول عملياً دون استمرار التداخل الاقتصادي والاجتماعي بين أقسام الشعب الكردي، خصوصاً في المناطق الحدودية، فأن العشرات من العشائر الكردية التي توزعت على دول مختلفة ظلت تحتفظ بعلاقاتها، ويحمل أفرادها في الغالب أكثر من جنسية، وتتوزع مشاتيها ومصائفها على طرفي الحدود، وتحول التهريب بالتدريج الى مهنة رائجة في صفوفها، لذا لا غرو أن لا يشعر المرء، مثلاً، بأدنى فرق بين نفسية أحد أبناء عشيرة الجاف في منطقة (كه لار) المجاورة لكركوك مع نظيره في منطقة (جوانرود) داخل الحدود الأيرانية.أضف الى ذلك أن ظروفاً خاصة وعامة أدت الى أن يتخلف الكرد عن الركب الحضاري، الأمر الذي تحول موضوعياً الى عامل مهم يحول دون اختلاطهم الواسع بغيرهم، مما حافظ على نقاوتهم الى حد كبير، فأن مفردات العربية مثلاً وجدت طريقها الى لغتهم بصعوبة أكبر من اللغة الفارسية أو التركية.

لا أؤمن شخصياً بوجود فروق جوهرية بين طبائع البشر والشعوب، فباستثناء الشواذ يميل الانسان عادة الى الخير الا اذا حوصر في لقمة عيشه، أو اذا تعرض الى ما يمس قيمه وموقعه، أو اذا وقع تحت تأثير فكر متطرف غير عقلاني يعرض بضاعته الفاسدة باسلوب مغرٍ.وخير أنموذج يخطر على بالي هو أن الكثير من الطائشين والمتطرفين الآن كان آباؤهم من خيرة الوطنيين العراقيين في أواخر العهد الملكي والمرحلة المبكرة التي أتبعت ثورة الرابع عشر من تموز لأنهم كانوا متأثرين يومذاك بأفكار قوى الخير العاملة على ساحة العراق السياسية.

★اذن، ما دمت ترى أن هناك سمات نفسية تأريخية يشترك فيها أغلب الكرد، فما هي أبرز هذه السمات؟

- لا أريد أن أبدي رأيي في السمات الشخصية للكرد رغم اعتزازي اللامحدود بكوني واحداً منهم، لكن غير الكرد، بمن فيهم الرحالة الأجانب، يعطون أوصافاً للكرد فريدة في بابها، منها احترام المرأة والوفاء والطيبة والبساطة والصدق والجرأة وغيرها من الصفات التي لم يكن بوسع النظام السابق، رغم كل أساليبه الملتوية، تشويه أبعادها، بحيث بقيت صورة الكردي تمثل صورة ايجابية مثالية في العقل الباطن للأكثرية الساحقة من عرب العراق وغيرهم.وفي هذا السياق ألجأ الى نموذج بسيط في شكله، عظيم في محتواه، وهو أن أي متبضع في الشورجة يميل الى التاجر أو الحمال الكردي أكثر بكثير مما يميل الى غيره.

★يوجد انطباع متداول بين الكرد أنفسهم، أن الأجيال الكردية الجديدة تختلف في تركيبتها النفسية، بنسبة ما عن الأجيال السابقة.كيف تنظر الى هذه المسألة؟

- بعد اندماج المنطقة بالأسواق الرأسمالية العالمية منذ أواسط القرن التاسع عشر طرأ بعض التغيير في السمات النفسية لجميع شعوب المنطقة بتأثير قيم الحضارة الأوربية الحديثة التي انتقلت اليها جنباً الى جنب البضاعة النوعية المستوردة من الغرب.يضاف الى ذلك بالنسبة للكرد عامل آخر تجسد في تفاقم الاضطهاد القومي ومحاولات الأوساط الحاكمة الالتفاف على طموحاتهم وقيمهم، مما زاد من حذرهم وشكهم المشروعين.تجاوز النظام العراقي السابق جميع الأنظمة الأخرى في محاولاته المنهجية الماكرة للنيل من السمات النفسية الايجابية الموروثة، والراسخة في أعماق عوام الكرد وخواصهم، الأمر الذي كان يهدف الى زعزعة ثقة الكردي بنفسه ليرنو تحت تأثير ذلك الى جنسية ((أفضل وأرقى)) من جنسيته.حصلت بفضل بعض الخيرين على كتب خاصة أعدتها بصورة سرية شعبة الاستخبارات النفسية التابعة لرئاسة الجمهورية ومديرية الأمن العامة، منها كتاب يقع في اثنتين وأربعين ومائة صفحة، ويحمل عنوان ((الشخصية اليزيدية).يحمل الفصل السادس والأخير من هذا الكتاب عنوان ((السمات العامة للشخصية اليزيدية))، تحاول مادته بوضوح ترسيخ الاعتقاد بأن شخصية اليزيدي الكردي ((شخصية مقهورة ومتقوقعة ومرتابة ومكبوتة ومذلة ومنقادة وقلقة ومهزوزة ومادية)).ومنها أيضاً كراس ((سري للغاية ومحدود)) عنوانه ((ملاحظات حول عمل الحزب الشيوعي العراقي في المنطقة الشمالية)).يقع الكراس في سبع وعشرين صفحة جلها مكرس للحيلولة دون اتصال الكوادر الشيوعية بالجماهير الكردية المهجرة قسراً من قراها خشية أن يعرقلوا مهمات أزلام النظام الذين كانوا يمارسون عملية غسل دماغ منظمة مع تلك الجماهير خدمة لسياسة التعريب المقيتة.وفي السياق نفسه أتذكر جيداً كيف منعت السلطة في أواخر السبعينيات وبدايات الثمانينيات من القرن الماضي تداول بعض مجلات الأغواء والاغراء العربية في جميع أنحاء العراق باستثناء المنطقة الكردية بحجة كونها منطقة سياحية، منها مجلة ((الشبكة)) اللبنانية على ما أتذكر.

★يحذر المختصون بالسيكولوجيا الاجتماعية من أن المغالاة في ((الاعتزاز القومي)) يمكن أن تؤدي في ظروف معينة الى نوع من ((الشوفينية)).أين تضع الشخصية الكردية من هذين المفهومين في الوقت الحاضر، وهي تستعد لمرحلة تاريخية جديدة من مراحل نيل حقوقها السياسية والثقافية والإنسانية؟

- بالعكس تماماً، فهناك حد سميك فاصل بين مفهومي ((الاعتزاز القومي)) و ((الشوفينية))، فالأول أمر مشروع بالنسبة للجميع، ولا كبرياء عندي يضاهي الكبرياء القومي، خصوصاً اذا كنتُ منتمياً الى خندق المظلومين الذين لا يمكن أن يكونوا شوفينيين أصلاً، فالشوفينية مصطلح ظهر أيام حروب نابليون بونابرت وحملاته التوسعية التي كان يشنها بحجة نشر مبادىء الثورة الفرنسية، وكان الضابط (شوفين) أشد المتحمسين للنزعة البونابارتية هذه ليتحول اسمه الى مصطلح يطلق على غلاة القوميين المتعصبين المنتمين للقومية الكبيرة أو الحاكمة، ممن يطمعون في أرض الغير بحجج واهية تبلغ حد تزوير حقائق التأريخ.تولد الشوفينية عادة التعصب القومي في صفوف الطرف الآخر، وهو أيضاً توجه غير ايجابي سوى في كونه رد فعل مشروع على عمل غير مشروع ليتحول بحكم ذلك الى احدى أهم أدوات حماية الذات.ومن خلال متابعتي الشخصية للعديد من الظواهر أستطيع أن أؤكد بأن التعصب الكردي لا يؤلف ظاهرة متفاقمة رغم أن شوفيين الفرنسي لا يستحق أن يكون سوى تلميذ متواضع في مدرسة علي حسن المجيد العراقي.

★ولكن هناك منظور في علم النفس السياسي يقول : ((إن الأمم التي تقهر في مرحلة تاريخية معينة ، غالبا ما تلجأ الى التعويض النفسي عن طريق الانتقام من مضطهديها في مراحل لاحقة)).فهل تتوقع ان ينقلب الكرد في المستقبل القريب او البعيد، بعد أن ينالوا كيانهم الذاتي عبر الفيدرالية في العراق، من أمة مظلومة إلى أمة ظالمة تسعى للثأر من أبناء القوميات المحيطة بها ؟

- كنت أتمنى أن توجه مثل هذا السؤال الى باحث غير كردي، لا أريد، مع ذلك، أن أتهرب من الجواب.الكرد أيضاً مثل غيرهم، من الممكن أن يخطئوا، كما من الممكن أن يصيبوا، الأمران اللذان يعتمدان على حكمة من يقودهم ويقود غيرهم من جيرانهم، وعلى النخبة المنتمية الى جميع الأطراف، نحن بحاجة الى عقل ومشاعر (الجواهري) و(معين بسيسو) و(عزيز نسين) و(اسماعيل بيشكجي) و(ايرج) و(خسرو روزبه) و(كوران) و(ليلى زانا) الذين رصعوا معاً أكليل الأخوة والصفاء بدرر فريدة.كم أتمنى أن يحذو الجميع حذو الشعب الأرمني العريق، نحن ظلمناهم واشتركنا في مذابحهم غير الانسانية بتحريض من قوى الظلام من أعوان السلطان عبد الحميد الثاني والاتحاديين فيما بعد، الا أنهم باستثناء حالات نادرة آمنوا بمبدأ العفو عند المقدرة، فتعاملوا مع كرد أرمينيا معاملة طافحة بمشاعر الكرم والأخوة.رأيت بأم عيني نعيم كرد بلدة (الكه ز) التي تقع على مبعدة أميال قليلة من العاصمة يريفان.

★تتباين المواقف في الساحة العراقية اليوم من موضوعة ((الفيدرالية)) وتأثيراتها المحتملة على مستقبل العراق.وقبل الخوض في الافرازات النفسية للفيدرالية، وما اذا كانت تعد حلاً يحفظ للشخصية الكردية هويتها التأريخية، أود ان أسأل عن جذورها التاريخية؟

- تعد الفيدرالية تأريخياً من أفضل ما أنتجه الفكر الانساني النيّر بهدف تجاوز مشكلات اجتماعية مستعصية.أعتقد أن الذين يعادون الفيدرالية لا يفقهون معناها ومغزاها وموقعها الايجابي في التأريخ.ومن أجل التوضيح أقتبس خلاصة ما ذكرته بهذا الخصوص في كراس لي صدر لي قبل أشهر بعنوان ((آراء في الفيدرالية)).ان كلمة الفيدرالية مقتبسة في الأصل من كلمة لاتينية قديمة Foedus التي تعني الاتحاد نصاً، وكان هذا المصطلح يطلق في عهد الامبراطورية الرومانية، التي ظهرت قبل الميلاد بعدة قرون، على العشائر الحدودية التي كانت تدافع عن تخوم الدولة وتحميها، من هنا فأن المصطلح ينطوي على مفهوم ايجابي منذ ظهوره قبل أكثر من ألفي سنة.

وهكذا كان الأمر أيضاً في التأريخ الحديث والمعاصر، وهو ما يهمنا أكثر من غيره، فأن جميع الذين آمنوا بالفيدرالية وناضلوا من أجلها في تلك المرحلة كانوا ينتمون الى خندق الوطنية، والى المظلومين تحديداً، منهم، على سبيل المثال، الفيدراليون الفرنسيون الذين كانوا ينتمون الى المقاطعات والأطراف ممن علقوا آمالاً كبيرة على شعارات الثورة الفرنسية عن الحرية والاخاء والمساواة، فتطوعوا للدفاع عن مكاسب الثورة التي تكالبت عليها القوى الرجعية في الداخل، كما في١٩٣٢ أن يؤثرا على وحدة الألمان والفرنسيين والايطاليين والريتورومان الذين بدأ أبناء جلدتهم خارج سويسرا يأكل بعضهم البعض طوال سنوات ست من عمر الحرب العالمية الثانية. بل وأكثر من ذلك أن خلفية هذه المساواة جعلت أذهان القوميات السويسرية الأربع مستعدة للتحول الى نظام فيدرالي في القرن التاسع عشر بعد أن عاشت بلادها نظاماً كونفيدرالياً على مدى حوالي ستة قرون قبل ذلك التأريخ.

ان الافرازات الايجابية لمثل هذا التعامل العقلاني لا تعد ولا تحصى، ويكفي أن نقول بهذا الصدد أن من الصعب أن يصدق أحد اليوم أن السويسري الذي يعد أفضل أنموذج انساني في عالمنا المعاصر على جميع الصعد، ويتمتع باستقرار نفسي قلّ نظيره، كان أجداده يمثلون أسوأ أنموذج على صعيد القارة الأوربية في العصر الوسيط، حتى أنهم تحولوا الى مصدر رئيس لتزويد جيوش المرتزقة الأوربية بالأوباش الذين أدوا نفس الدور الذي أداه ((جحوش كردستان)) على مدى سنوات طوال.

أود أن أشير أيضاً الى حالة فيدرالية عشت في أجوائها على مدى عقد واحد من الزمن، وأقصد بها الفيدرالية السوفييتية.ان من أفضل ما حققته ثورة أكتوبر الاشتراكية عام ١٩١٧ لشعوب الامبراطورية الروسية هو تحويل نظام القياصرة المستبدين الى اتحاد كونفيدرالي في البداية، ومن ثم الى اتحاد فيدرالي اختياري منذ العام ١٩٢٢.لاحظت، مثل جميع زملائي العراقيين الآخرين الدارسين هناك، العديد من الجوانب الايجابية في الفيدرالية السوفييتية، فلم نحس بأي نوع من التعالي القومي الشوفيني لدى الأكثرية الروسية، وكان لكل جمهورية من الجمهوريات الخمس عشرة علمها الخاص يرفع جنباً الى جنب علم الدولة المركزي فوق جميع المؤسسات الرسمية دون استثناء، كما أن اسم العملة الروسية كان مطبوعاً على الروبل بخمس عشرة لغة، بضمنها، على سبيل المثال، باللغة الأذربيجانية، وكان التعامل مع اللغات القومية يجري على قدم المساواة مع اللغة الروسية في جميع ميادين الحياة اليومية ولم ألاحظ في المؤسسات العلمية التي كنت أتعامل معها في (باكو) عاصمة أذربيجان السوفييتية، ولا في (يريفان) عاصمة أرمينيا السوفييتية أي وجود روسي، فعلى سبيل المثال لم أجد لا في معهد شعوب الشرقين الأدنى والأوسط التابع لأكاديمية علوم أذربيجان في باكو، ولا في معهد الاستشراق التابع لأكاديمية علوم أرمينيا في يريفان طالباً، أو أستاذاً روسياً واحداً، وكذلك في المكتبات العلمية الكثيرة التي كنت أتردد عليها باستمرار، بينما كان العشرات من أبناء القوميات غير الروسية يعملون ويدرسون في نظيرات تلك المؤسسات في موسكو ولينينغراد وغيرهما من كبريات المدن الروسية.ولن أنسى تواضع وبساطة (رينا) طالبة الدراسات العليا في معهد شعوب الشرقين الأدنى والأوسط بباكو، وتعاملها الطبيعي جداً، بل المشوب بقدر واضح من الخجل، مع الجميع، وتنقلها مع زميلاتها الأخريات مع العلم أنها كانت ابنة السكرتير الأول للحزب الشيوعي الأذربيجاني (آخندوف).

★من المعروف في حقل دراسات الادراك الاجتماعي أن الأفراد المنتمين إلى أي جماعة بشرية سواء كانت سياسية أو قومية أو عرقية أو ثقافية، لا بد من أن يحملوا في أذهانهم ((صورة نمطية)) عن السمات الشخصية لأفراد الجماعات الأخرى.ولهذه الصور النمطية تأثير مباشر في تحديد طبيعة العلاقات بين هذه الجماعات سلباً أو إيجاباً. ما هي برأيك خصائص الصورة النمطية التي يحملها كل من الكردي والعربي عن بعضهما في عراق اليوم؟وهل تغيرت هذه الصورة قياساً بما كانت عليه في الحقب السياسية السابقة؟وما هي طبيعة الآفاق المستقبلية للعلاقة بين الكرد والعرب انطلاقاً من نمطية هذه التصورات الذهنية التي يحملونها عن بعضهم؟

- العلاقات بين العرب والكرد كانت دوائماً علاقات مثالية، لا أقول ذلك جزافاً، أو بدوافع عاطفية، بل على أساس شواهد تأريخية محددة.فبعد أن فقد الكرد الأوائل حكم أنفسهم بأنفسهم، وتقلص دورهم الحضاري في ظل الدول التي توالى حكمها على كردستان على أثر سقوط الدول والامارات الكردية القديمة الواحدة تلو الأخرى، كان أمراً طبيعياً أن يرحب الكرد بالاسلام باعتبار ذلك وسيلة للانتقال الى وضع أفضل مما كانوا فيه.دشن هذا الواقع أول احتكاك مباشر وواسع للكرد وكردستان بالعرب —حملة راية الدين الجديد- ولم يمس الاسلام الكيان القومي للكرد داخل وطنهم، بل انه ساعد على تعزيز ذلك الكيان بوجه الشعوب والأنظمة غير الاسلامية المتاخمة لكردستان، ولا سيما في طرفها الشمالي.ولقد احتفظ الكرد بخصائصهم القومية، وبلغتهم في ظل الاسلام وحضارته على الرغم من تحولهم الى عنصر فاعل بالنسبة لكليهما.وتعززت هذه العلاقات أكثر في أواخر العهد العثماني، ولا سيما بعد انتقال السلطة الى الاتحاديين المتعصبين الذين عادوا العرب والكرد على حد سواء.فحسب الوثائق الروسية الخاصة أجرى الشيخ محمود اتصالات خاصةمع شريف مكة حسين وأولاده مقترحاً عليهم التعاون في نضال الطرفين ضد الاتحاديين، اذ بعث اليهم رسائل عديدة بهذا الخصوص، وقعت احداها بيد المسؤولين العثمانيين.وعلى أديم الشعبية اختلطت دماء العرب والكرد في نيسان ١٩١٥ أثناء تصديهم للجيوش البريطانية الغازية، فمنح بسطاءُ الفرات الأوسط الكردَ ثلث الجنة في هوسة شعبية معروفة وردت بصياغتين ((ثلثين الجنة لهادينا وثلث الجنة لكاك أحمد وأحفاده))، و((ثلثين الجنة لهادينا وثلث الجنة للشيخ محمود وأكراده)).

دخلت هذه العلاقات مرحلة جديدة مع انتهاء الحرب العالمية الأولى وفرض الاحتلال ثم الانتداب على العراق.حسب وثائق وزارتي المستعمرات والخارجية البريطانيتين، وبشهادة مؤلفين انجليز مطلعين من أمثال (لونكريك) و(ادموندز) كان ((طائر الشؤم)) الشيخ محمود حسب وصف البريطانيين له، على اتصال مباشر برجال الحوزة في النجف وكربلاء، وبعدد من رؤساء العشائر العربية المعروفين.تتحدث احدى الوثائق عن استقبال زعماء العبيد والبيات للشيخ محمود بعد عودته من منفاه في الهند سنة ١٩٢٢، وتتحدث وثيقة خاصة أعدت لشخص الملك فيصل الأول في كانون الثاني ١٩٢٣ عن اجتماع مهم عقده الشيخ محمود مع (٤٣) رئيساً عشائرياً لوضع خطة لنظامه، كان اثنان منهم من رؤساء العشائر العربية في الحويجة، الأول رئيس فخذ البوعلي فرحان الروحان، والثاني هو سيد عبد القادر اغا من ملحة.ومن المناسب أن أشير هنا الى عبارة وردت في نص القسَم الذي كان على كل من يمنح العضوية في صفوف الحزب الشيوعي العراقي في خمسينيات القرن الماضي أن يؤديه، وهي أنه يكون مخلصاً لتراث محمد جعفر أبو التمن والشيخ محمود.

مع ظهور الفكر التقدمي على الساحة اتخذت الأخوة العربية - الكردية بعداً أعمق حين تحول النضال المشترك للشعبين الى واحد من أهم عناصر الحركة الوطنية العراقية، مما تجسد في أيام الوثبة عام ١٩٤٨ وانتفاضة ١٩٥٢ وحركة الاحتجاج ضد العدوان الثلاثي على مصر، أتذكر شخصياً حتى اليوم الهوسة التي كنا نرددها نحن الطلبة العرب والكرد معاً في ساحة دار المعلمين العالية، وفي شوارع الوزيرية وباحة السفارة المصرية: ((مصر الحرة ما نبيعها، عشر سنين نحارب بيها)).

على الخيرين أن يبذلوا كل ما في وسعهم من اجل احياء هذا التراث السياسي الجليل بعد أن امتدت اليه يد التخريب والتحريف في ظل النظام السابق الذي زرع بذور التفرقة والشقاق والتعصب الأعمى بصورة منهجية على مدى خمسة وثلاثين عاماً، وأصبح الكرد الضحية الأولى لمثل هذه السياسة الخرقاء لأنها جعلت وجودهم القومي، وأرض أجدادهم أمام خطر محدق حقيقي غدا معه كل ما هو كردي مرفوضاً لا في نظر المتعصبين وحدهم، بل وحتى في نظر قطاع من بسطاء الناس بسبب وعيهم المتدني، أو بدوافع مصلحية ضيقة، مما أصاب الوحدة الوطنية في الصميم، وجريرة ذلك تضاهي جريرة القبور الجماعية دون ريب.مع ذلك علينا أن نكون متفائلين ونؤمن بالمستقبل.ان جميع زملائي وأخواني الكثيرين من العرب والكرد يفكرون مثلما أفكر، وفي ذلك مبعث تفاؤلي دون أن أنسى أن الساحة بدأت تشهد ظواهر خطيرة للغاية تمس الكرد وكرامتهم في الصميم، وهي غريبة عن طبيعة العراقيين وتأريخ علاقة العرب بالكرد الذين أتمنى أن لا ينفد صبرهم.

★هناك رأي يقول ان الجالية الكردية في بعض بلدان شمال أوربا - التي لا تزال لها أواصر اجتماعية واقتصادية قوية بموطنها الأم- صارت تشكل بحد ذاتها مجتمعاً كردياً له خصائص حضارية وسلوكية متمايزة إلى حد كبير عن مجتمع كردستان.ما تأثير هذا الانقسام الجغرافي على الهوية التاريخية للشخصية الكردية مستقبلاً؟

- كنت أتمنى دوائماً أن يكون للكرد والعرب دوائماً، كما لليهود، لوبيهم الخاص في الغرب الذي يتمتع بتأثير مباشر على سير الأحداث في كل مكان.كان الشهيد الدكتور (عبد الرحمن قاسملو) سكرتير الحزب الديمقراطي الكردستاني الأيراني، يولي هذا الموضوع اهتماماً استثنائياً ادراكاً منه لأهميته، وحقق في مضماره مكاسب جديدة خدمت القضية الكردية.فقد قطعت علاقات قاسملو الودية بعدد كبير من كبار الساسة والصحفيين الأوربيين شوطاً بعيداً، بحيث عندما استشهد في فيينا نقل جثمانه خصيصاً الى باريس ليدفن هناك في مقبرة الاشتراكيين في تشييع مهيب حضره عدد كبير من أقطاب اليسار المعروفين.

أدى الوجود الكردي الملموس، خصوصاً في فرنسا والمانيا، دوراً متميزاً في جلب انتباه العالم المتمدن الى مأساة الكرد.من هذه الزاوية يفترض تقويم وجود الجالية الكردية في الأقطار الأوربية، فأن ما هو ايجابي في هذه الظاهرة أكثر بكثير مما هو سلبي، لقد تحول معظم هؤلاء الى مصدر رزق لأفراد أسرهم في الوطن الأم، كما أن ظاهرة التزاوج فيما بينهم، أو اقبالهم على الزواج من قريباتهم في كردستان تؤشر حرصهم على هويتهم القومية وتمسكهم بتقاليدهم الخاصة.ومن المعروف أن لدى الجالية الكردية في اوربا تنظيماتها وصحافتها الخاصة بها، وهي تولي أعيادها وتقاليدها الموروثة كل ما يستحق من اهتمام، وتتابع القنوات الفضائية الكردية أكثر من غيرها.شخصياً أحتفظ بعشرات الرسائل من شباب تلك الجالية دون أن أعرفهم، كما أن العديد منهم يتصلون بي هاتفياً في مناسبات مختلفة، ويبعثون لي بمؤلفاتهم، الأمر الذي ينطبق أيضاً على مثقفنا البارز محمد الملا عبد الكريم المدرس، وربما على غيره أيضاً.

★واخيراً ... تبقى قضية حق الكرد في تقرير مصيرهم بما فيه حق اقامة دولتهم القومية المستقلة، قضية لها بريقها وحيويتها في نفس كل كردي، بل ويذهب غالبية الكرد الى القول أن الكرامة الكردية تظل منقوصة حتى يرفرف علم موحد لدولة كردستان المستقلة.الا ان هناك رأي آخر أقل انتشاراً يقول ان الشخصية الكردية يمكن أن تجد فرصتها الانسانية في تحقيق ذاتها ضمن عراق ديمقراطي تعددي فيدرالي، أكثر مما هي عليه في دولة كردية مستقلة ذات طابع قومي عشائري في بنيته السياسية.فما هو موقفكم من وجهتي النظر هاتين؟

- يحق للكرد أن يتمتعوا بكل ما يتمتع به غيرهم، وهذا قانون طبيعي ينطبق على جميع شعوب الدنيا دون استثناء اذ ولى عهد ((شعب الله المختار))، ولا اختلاف بين عقلاء الناس في تقويمهم لهذا المبدأ القويم الذي من شأنه أن يساعد كثيراً في حل مشكلات العباد والجماعات والبلدان.فمنذ القرن الرابع عشر كان يوجد نظام في انجلترا ينطبق على الجميع اسمه ((قانون العدالة أو المساواة)) Equity، وبعد مرور أكثر من ستة قرون على ذلك لا يقر الظلاميون المتخلفون مثل ذلك الحق للكرد.أما حق تقرير المصير تحديداً فأنه أصبح شائعاً على نطاق واسع في عصر الثورات البورجوازية الأوربية الكبرى، ولم يتصد له هناك سوى من كانوا يحملون بقايا الفكر الاقطاعي، وللأسف الشديد يعيد التأريخ هنا نفسه بحذافيره لدينا.

مع انتصار أول ثورة اشتراكية في العالم في تشرين الثاني ١٩١٧ ترسخ مبدأ حق تقرير المصير الى حد كبير.مع كل ذلك علينا أن لا ننسى أيضاً أن حق تقرير المصير لا يعني الانفصال بالضرورة، ومن الثابت أن الانفتاح ساعد كثيراً على احتواء النزعات الانفصالية في كل زمان ومكان.علينا أن نواكب العالم المتمدن في توجهاته العقلانية، ان الحدود الدولية في طريقها الى الزوال في أوربا الغربية منذ أواخر القرن الماضي، وحل اليوم الصفاء والوئام بين الفرنسيين والألمان بعد أن فرّقت أنهار من الدم بينهما على مدى قرون طوال، وفي هذا درس بليغ لكل من يريد أن يعتبر، وأن يدرك بأننا دخلنا القرن الواحد والعشرين.

ومع آخر حروف الدكتور كمال في سياحته التأريخية في الأعماق الكردية، وجدتُ كلمات شاعر الكرد الخالد (عبدالله كوران) تصدح فيّ :

أريد من الفتى الكردي أن يضع على كفه
قلبه الدافىء، المفعم بالاحساس
ويطوف به بين فرق الشباب
ويذيع مشاعره في أعطاف العالم
ولا يتوهم أنه كردي، متأخر، ضئيل
فقد بزغ في الأفق فجر للانسان يمحو مساحات الصغر والكبر بين الشعوب .